كنز من كنوز الجاحظ

اربع رسائل من رسائله

— ٥ —

الرسالة الرابعة من رسائله الأربع

عنوان هذه الرسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) افتتحها بقوله : (أصحب الله مدتك السعادة والسلامة ، وقرنها بالعافية والسرور) . والخطاب فيها موجه الى الوزير ابي الحسين عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل . ولم يصرح باسمه في طرة الرسالة ـ كما صرح باسم المخاطبين في الرسالة الأولى والثالثة ـ وانما فهم ذلك عنه في ختام الرسالة ص ١٢٢ وسيأتي . ويقول الجاحظ للوزير المشار اليه ان رسالته او كتابه هذا (كتاب نبيل بارع فُصِل فيه بين الحسد والعداوة لم يسبقني اليه احد) بل سبقوه الى ذكر الحسد والعداوة ومبلغ ضررهما بالمجتمع وسرد ما ورد فيهما على ألسنة الأنبياء والصحابة والحكماء غير ان الذي لم يسبقوه اليه تشقيقه القول فيهما وتفننه في حسن التمثيل والاستشهاد لهما بما لا يخطر لأحد ببال ، أو يجري منه في خيال ، وكل ما أراده من صديقه ثواباً على تخصيصه اياه بهذه الرسالة ما ذكره بقوله مخاطباً له : فأنا أسألك بساطع كرمك ، وناصع فضلك لَمّا امتننتَ عليَّ بصرف عنايتك الى قراءتها ، فان لم يمكنك تبحرها ، والتقصي لجميعها ، للاشغال التي تعروك ، فبحسبك ان تقف على حدودها ، وتتعرّف معاني أبوابها ، بتصفح اوائلها ، : فان معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقد والحفظ ، ما يكفي معه نظر الخاطف) وقوله (لما امتننتَ عليَّ) (لَمّا) هنا بمعنى (الاّ) كما في قوله تعالى (إن كل نفس لَمّا عليها حافظ) ويقول العرب (أنشدك الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لمَّا فعلتَ) اي الا فعلت . وقوله (تبحّرها) التبحر في العلم التوسع فيه فمعنى تبحرها التوسع في فهم مضامينها . لكنّ الجاحظ عدى فعل التبحر بنفسه . وهو انما يتعدى بالحرف . فكأنه ضمّنه معنى التقصّي والتتبع .

وأول ما وصف من العداوات عداوة العلماء بعضهم لبعض فصنَّفهم الى علماء أهل حق (محضوا الحكمة وعجموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم) ـ واهل باطل يعارضون الأولين (وقد تسموا بأسماء العلم على المجاز بغير حقيقة . ولبسوا لباس الزور متزخرفين متشبعين بما لا محصول له) وأتى على وصف التحاسد والتنافس بين هؤلاء واولئك . وقصّ بعض ما كان يقع في مجالس الخلفاء من مناظرات العلماء حول آرائهم ومصنفاتهم مما منشؤه العداوة والحسد . وأخذ في التفرقة بينهما (اي بين العداوة والحسد) : من ذلك (ان العداوة لها عقل تسوس به نفسها ، فينجم قرنها ، وتُبدي صفحتها ، في أوقات الهَتْر ، وإلا فانها كامنة : تنتظر ازمنة الفرص . والحسد مسلوب المعقول (اي العقل) بازاء الضمير (؟) في كل حين وزمان . ومن لؤم الحسد أنه موكل بالأدنى فالأدنى والأخص فالأخص (اي كلما ازدادت القرابة والخصوصية بين الناس ازداد الحسد تكالبًا بينهم . و (الهتر) تمزيق العرض بالطعن والثلب فقوله بعده (بازاء الضمير) لعل صوابه (بإزاء الهتر) . وخلاصة ما قاله الجاحظ في هذا الباب ان العدوّ له عقل اما الحاسد فلا عقل له .

ومن الأدلة على ان الحسد أوجع وأوضع من العداوة أن الحسد انما يثور في نفس الحاسد لأسباب ليس للمحسود صنع فيها وانما هي من صنع الله كجمال الصورة وفصاحة اللسان وكرم المحتد وحسن الأخلاق وهذا بخلاف العداوة فان المعادي لك انما يقصد الى ضررك والحاق الأذى بك لأسبابٍ صدرت منك كأكلك ماله او تحقيرك له او الحاحك عليه بالأذى والشر . فاذا كففت عن ذلك . او اعتذرت اليه زالت العداوة بزوال اسبابها ورجعتما خليلين متصافيين ، ولا كذلك الحسد فان اسبابه فضلك او فصاحتك مثلاً وكلاهما لا يمكن تجنبهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا الاعتذار عنها ما داما من صنع الله . فالحسود عدو الله في الحقيقة ، وكل هذا (دليل على ان الحسد لا يكون الا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السوس (اي الطبيعة) وقال بعضهم الحسد انثى لأنه ذليل والعداوة ذكر فحل لأنها عزيزة) (أقول) وكان الأحسن لو قال الحسد انثى لأنه ضعيف يتستر مثلها ويتوارى تواريها ، والعداوة ذكر قوي فهي ظاهرة سافرة بادية صفحة الوجه كما ان الرجل القوي كذلك . ووصف الجاحظ عالماً عراقياً رآه وشاهد ما اصابه من البرحاء وحرقة الحسد حين بلغه عن زميل له في خراسان من اتساق الرياسة له في بلده (ونبل محله عند اهل مصره ، وطاعة العامة له ، فطار قلب العراقي فرقا . واخذته الأرباء وتنفس الصعداء ، وانتفض انتفاض المعلّس الممطور) قال الجاحظ فقال لي رجل من إخواني كان عن يميني حين رأى ما رأى من ذلك العالم العراقي : (لم أر ظالم اشبه بمظلوم من حاسد نعمة ؛ فان نَفَسه متصل ، وكربه دائم ، وفكرته لا تنام) وقوله (الأرباء) بالمدّ لم أره ولعله (الأَرَبى) ومعناه الداهية . واي داهية ادهى من حزّ الحسد في النفس . ويمكن ان يقال ان (الأرباء) هنا هي الأربى غير ان الجاحظ مدها لضرورة السجع او لمزاوجة الصُعداء . وقولهم (تنفس فلان الصُعداء) يستعمله الفصحاء كما استعمله الجاحظ في التوجع ومقاساة مضض الغم لا في انكشاف الهم وزوال الكرب كما يستعمله بعض الناس . فقد قرأت في (مجلة الرسالة) لكاتب يصف قوماً يمقتون فاضلاً يشتغل معهم ثم نقل الى عمل آخر قال (ولعلهم واجدون في إبعاده متنفساً لصعدائهم) اي انفراجاً لكربهم واستعماله بهذا المعنى غير سديد ومخالف لما يستعمله البلغاء فيه . و (المعلّس) الرجل المجرب ولا تناسب ارادته هنا وانما المناسب ان يكون محرفاً عن اسم طائر او حيوان ينتفض حين وقوع رذاذ المطر عليه (كما أنتفض العصفور بلله القطر) واقرب ما يمكن ان تكون (المعلّس) محرفة عن العَمَلّس . وهو اسم للجمل وجاء في (ديوان الحيوان) للسيوطي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان (العَمَّاس) اسم للذئب الخبيث والكلب الخبيث . وفي تشبيه ذلك الحسود بالذئب الممطور او الكلب الممطور زيادة تبكيت له ، وتنفير من حسده ، ومعرة لؤمه .

وصغار الكتاب في عصرنا يعمدون الى الفحول من كتاب بلدهم وشعرائه فيطعنون فيهم ، ويتخذون منهم أداة لهو وسخر ، ليصرفوا انظار الناس عنهم اليهم وينالوا الشهرة دونهم وكما ان في الكسب مال سحت كذلك في الشهرة شهرة سحت كشهرة هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كان مثلهم كثيراً في عصر الجاحظ وقد وصفهم وذكر نوادر من اخبارهم : من ذلك ما حدثه به صريع الغواني الشاعر قال (خُيِّل الى نوكى الشعراء أنهم لا يُقضى لهم بجودة الشعر الا بهجائي والطعن في شعري . وهجو عرضي . وانا لا انفك متهماً من غير جرم أجرمته الا ما سبق الى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم انه لا يسجل لهم بجودة الشعر الا اذا استعملوا فيَّ ما خيّل اليهم) . وذكر الجاحظ ان الحساد يقبلون على مصنفات محسوديهم فيقرأونها ويلتهمون معانيها التهاماً ، ويشهرون بها اماء الناس ويحقرون من شأنها ، ثم لا يلبثون اذا كتبوا او صنفوا ان يحملهم نوكهم على استعمال معانيها والفاظها في رسائلهم الى اخوانهم الذين كانوا من قبل سمعوا منهم الطعن في تلك الألفاظ والمعاني نفسها . وما قاله الجاحظ مصداق قول الشاعر :

(ترى الفتى ينكر فضل الفتى لؤماً وخبثاً فاذا ما ذهب)
(لجَّ به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب)

وهنا (ص ١٠٨) وصف الجاحظ ما كان يلاقيه هو ومصنفاته من حساده : يطعنون فيها وهم يعرفون براعتها ونصاعتها . وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان مصنفه مقدماً الى ملك (فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة) فان أمكنهم اسقاط ذلك المؤلف في نفس الملك والا عمدوا اليه فسرقوا معانيه . وألّفوا من أعراضه (جوانبه) وحواشيه كتاباً . وأهدوه الى ملك آخر معجبين بما كتبوا . وان كانوا قد ذموه وثلبوه لما كان منسوباً الى الجاحظ . وكان الجاحظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يؤلف احياناً مؤلفاً دون سائر مؤلفاته في معانيها والفاظها وينسبه الى غيره ممن تقدمه (مثل ابن المقفع والخليل ويحيى بن خالد والعتّابي) فيأتي حساد الجاحظ اليه رافعين عقيرتهم بالاعجاب والثناء على ذلك المؤلف ويلتمسون منه استفساخه وقراءته عليه وروايته عنه وينشرونه في الناس ويتخذونه إماماً. كل ذلك لأنه لم ينسب الى الجاحظ ولم يترجم باسمه قال (ولربما خرَج الكتاب من تحت يدي مُحصفاً (اي محكم الفتل) كأنه متن حجر املس بمعانٍ لطيفة محكمة، والفاظ شريفة فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسدين إن انا نسبته الى نفسي فأظهره مُبهماً غُفلاً في جملة الكتب التي لا يُعرف وضّاعها. فينهالون عليه انهيال الرمل ويستبقون الى قراءته استباق الخيل).

وهوّن الجاحظ من امر العدوّ والحسود والمغتاب اذا كانوا أغبياء جهلاء لأن غباوتهم تدل عليهم فيقل تأثير كلامهم في نفوس السامعين. أما البلاء الذي ما فوقه بلاء فهو في ما اذا كانوا عقلاء اذكياء ذوي فطانة وحذق فان كيدهم يكون اشدّ، وسهام اذاهم أحدّ واسدّ. وقد صور الجاحظ هذا المعنى أبلغ تصوير فقال (وانما البلية في غيبة حذاق المغتابين الذين يسمعون (اي الطعن في المحسود) فيضحكون ولا يتكلمون. وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون بالصلاح للمقول فيه). فدعاؤهم له بالصلاح اقرار بصحة ماقيل فيه من الطعن والثلب والا (لُجبه القائل وردع عن قوله) فهذه الطريقة أخبث انواع الغيبة واشدها خطراً في رأي الجاحظ، ومما يؤسف له ان هذا النوع الخبيث من الغيبة فاش في عصرنا هذا كثير الشيوع في مجالسنا فلا يجبه مغتاب ولا يردع، بل يقرّ طعنه ويسمع، ثم بالدعاء والاستغفار يُلحق ويتبع، فيقولون (اصلحه الله) او (غفر الله لنا وله) وهذا عين ما قال الجاحظ انه كان يقع في عهده قال: وكان (عبيد الله بن عبد الله بن مسعود) من نبلاء المغتابين وحذاقهم مذ يقول مخاطباً عدوين له منافسين:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(فلو شئتُ أدلى فيكما غير واحدٍ علانيةً ، أو قال ذلك في سرِّ)
(فإن أنا لم آمر ولم أنهَ عنكما ضحكتُ له حتى يلجّ ويستشري)

وسرق العتابي هذا المعنى فقال :

(إن كنتَ لا تحذر شتمي لِما تعرف من صفحي عن الجاهل)
(فاخش سكوتي سامعاً ضاحكا فيك لمشنوع من القائل)

والمشنوع المشهور بالقبيح . وقول عبيد الله (أدلى فيكما) اي قال فيكما قولاً قبيحاً . وقد كثر بين الكتاب استعمال فعل (أدلى) كثرةً لا مسوّغ لها . وفي فصيح اللغة من التعابير ما يغني عنه . فالسكوت والضحك من ألين انواع الغيبة وأنعمها . وألينُ منهما تبسم الإمام (ابي حنيفة) فقد كان يبلغ من التبسم من (الثوري) ما لا يبلغ الثوري بالتصريح منه . والين من هذاو ذاك غيبة القاسم بن معن وقد سئل عن ابن ابي ليلى فقلّب كفه وقال :

(من الناس من يخفي ابوه وجدّه وجدّ ابي ليلى لكالبدر ظاهر)

فتقليب كفه اشارة الى حيرته في امر ابن ابي ليلى . اما ما استشهد به من الشعر فهو على حد :

(خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء)

فهو يقول ان جد أبي ليلى ظاهر ظهور البدر : فاحتمل ان يكون أراد بظهوره ظهور خسة نسبه وضآلته . كما احتمل ان يكون اراد ظهور رفعته ونباهته . ومن أبلغ ماقيل في وصف ذلة الذي يغتاب عدوه ويتملقه اذا حضر قول خالد بن صفوان في شبيب بن شيبة (ليس له أخ في السر ولا عدو في العلانية) — وقول العتابي في اهل بغداد : (حساد : اخوان العلانية . واعداء السريرة : يعطونك الكل . ويمنعونك القلّ) اي يعطونك كل ما رضيته اذا جالستهم فاذا غبت عنهم بخلوا عليك بالقليل من حقك .

أ وأفاض الجاحظ في اي الأمرين يكون الصواب والسداد والحزم : أفي مصارحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

العدو بالعداء؟ او في مداراته وتجنب ملاحاته ؟فمنهم من كان يقول بالمداراة (يعني على طول الخط كما يقولون) ومنهم من يرى الفرار منها والإعذار فيها (فان هي — أي العداوة - أبت إلا المقارنة قارنوها بمثلها) (كذا في ص ١١٤) ولعل صوابه (فان هي أبت الا المقاومة قاوموها بمثلها) وهذا على حد قول الشاعر :

(واني لآبي الشر حتى إذا أبى يجنب داري قلت للشر مرحبا)

(وأركب ظهر الأمر حتى يلين لي اذ لم أجد الا على الشر مركبا)

ومنهم من غلا في المصارحة واللجاج في مقاومة العدو ولو نزل على حكمك وأنصفك كالعباس بن عبد المطلب الذي يقول لأخيه :

(ابا طالب لا تقبل النصف منهمو ولو أنصفو حتي تَعُقَّ وتظلِما)

والنصف (مثلثة النون) بمعنى الانصاف وهذا ما عناه طوق بن مالك بقوله (من لم ينتهز من عدوه انتهز منه) . وعلى عكس هذا قول عبيد الله بن عبد الله بن مسعود الذي جعله الجاحظ كما مر (من نبلاء المغتابين وحذاقهم) فان قوله أبلغ ما قيل في المسالمة والمداراة وهو :

(منافسة الصحاب او الأعادي تجرّ الى المذمة والملامة)

(اذا أعطاك نصفاً ذو وداد وبعض النصف فانتهز السلامة)

قوله (ذو وداد) لعل صوابه (ذو عداء) لأن المقام مقام التوازن بين مقاومة الأعداء ومداراتهم : يقول اذا انصفك عدوك ولو بعض الانصاف فاغتنم فرصة السلامة والراحة من عناء مكايدته . كما قال صاحب التائية من المتأخرين :

(لما عفوتُ ولم أحقد على أحد أرحتُ نفسي من همّ العداوات)

وهناك قوم افحشوا في مقاومة العدو الى حد الظلم والبغي . منهم مصعب بن الزبير الذي قال (اذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوك فبادره برجلك : فان سلم من الدهر لم يسلم منك وانشد :

(اذا نبرك الزمان على عدو بنكبته أعنتُ له الزمانا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال العتابي (إن من شرط الدهر ، ومن صناعة الزمان السلب (اي سلب ما اعطى أو هو محرف عن التقلب) فاذا حملت الأيام على عدوك ثقلاً ، وأمكنتك منه فزده ثقلاً الى ثقله) ويقال ان المقابلة بالشر قد تكون أحياناً أنجع في الوصول الى ما يبتغي الانسان من حاجة :

(وفي الشر نجاة حيـــن لا ينجيك احسان)

قال الجاحظ حدثنا ابو مسهر عن خالد الكلبي قال : (كنا مع ابي برزة الاسلمي في غزاة . فكان منا رجل يمتار لنا الميرة . ويقوم بحوائجنا . فاذا اقبل قلنا له جزاك الله خيراً . فيغضب لدعائنا . فشكونا أمره الى أبي برزة . فقال : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . فاقلبوا له . فكنا نقول له ـ إذا أتانا بالحوائج ـ جزاك الله شراً وغسراً . فيضحك لذلك) .

وروى الجاحظ لبعض الأعراب ابياتاً حض فيها على الحلم والصفح عن الجهال ومنها:

(فأبق على جهـال قومك انه لكل حكيم موطن هو جاهله)

فالشاعر يحض الحكماء العقلاء على ملاينة الجهال والابقاء عليهم . ومعنى الابقاء عليهم رحمتهم وترك اخذهم بالعنف . وبهذه المناسبة نقل الجاحظ عن عمر انه قال : (استوصوا بالغوغاء خيراً : فانهم يطفئون الحريق . ويسدّون البثوق) اقول : ويروى بين الفقرتين (وينقذون الغريق) . لا جرم أن هؤلاء الغوغاء المنتشرين في الأسواق هم الذين يترامون على الحريق فيطفئونه . وعلى الغريق فينتشلونه . واذا انبثق ماء النهر على أهل الجوار اسرعوا الى سده . ويروى (ويشهدون السوق) مكان (ويسدون البثوق) وكأن احداهما محرفة عن الأخرى . ومعنى يشهدون السوق ـ ان صحت روايتها ـ ان العامة يشهدون مواطن البيع والشراء فاذا حصل أحياناً بين المتبايعين خلاف ونزاع ، ولكم وصراع ، ساعدوا اعوان القاضي والشرط على معرفة أسرار النزاع فلا تفوت الشرطي معرفة الحقيقة من بين اقوالهم وثنايا شهاداتهم .

ولما اوشك الجاحظ ان يختم الرسالة أتى في خطاب الوزير بأبلغ ما يقال في الحسد وانه هو (اي الجاحظ) كثير الحساد بسبب الانتماء اليه كما انه كثير الخلان فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنت امرءً قليل الحسّاد حتى اعتصمتُ بعروتك . واستمسكتُ بحبلك ، واستذرأتُ بظلك . فتراكم عليَّ الحساد وازدحموا . ورموني بسهامهم من كل اوب وأفق . وتتابعوا عليَّ تتابع الدَبْر على مشتار العسل . ولئن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك إخواني . وبنضرة أيامك . وزهرة دولتك خلاّني . وانا كما قلتُ :

(فأكثرتَ حسادي واكثرتَ خُلاّتي وكنتُ وحسادي قليلٌ وخلاني)

وهنا انتقل الجاحظ في الكلام على الحسد الى حديث طريف ، في اسلوب مبتكر ظريف ، فسرد خبراً عن رفاق زاروه ، وخاضوا معه في بحث الحسد والحساد . وأستبعد أنا جداً أن يكون خبر هذه الزيارة وما تلاها واقعياً . إنما هو مخترع لظهور أثر الاصطناع والاعتمال فيه . فهو في اسلوبه وتأليف أجزائه أشبه بما ابتكره بديع الزمان الهمذاني وقلده فيه الحريري مما أسمياه (المقامة) و (المقامات) . فيكون الجاحظ هو واضع هذا الفن أو غارس غرسته الأولى . فاستثمرها وقلّدها بديع الزمان الذي عاش بعد الجاحظ بنحو قرن ونصف . وها نحن أولاء ننشر الخبر او (المقامة الجاحظية) بنصها الساذج وللقارئ حكمه عليها ورأيه في ما قلناه فيها :

قال الجاحظ مخاطباً الوزير عبيد الله بما نصه :

لما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل عليَّ (عشرة نَفَر) من الكتّاب : قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك . وجزيل فوائدك . فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعّب لهم ذلك الحديث شعوباً افتنوا فيها . والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتني رقعةُ أُناسيَةٍ (أي اناس) من الحساد ، فيها سهام الوعيد . ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ماأؤلف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجْرَي عليَّ . فدفعتُ رقعتهم الى من قرُب إليَّ منهم (أي من العشرة) فقرأها ثم قال الأول: قاتلهم الله أبظلم يرومون النيل . ويلتمسون الشركة في المعروف . لنَزْع الروح بالكلاليب . أهون من بذل معروف بترهيب . وأنشأ يقول:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(أما الحوادث من خليـ ـلك مثل جندلة المراجم)

(قـد رامني الأعداء قبـ ـلك فامتنعت من المظالم)

ودفعها (أي الرقعة) الى من قرب منه فقرأها . وقال (الثاني): صكة جلمود . لكل مرعد حسود . يستمطر العُرف بالتهديد ، خلّ الوعيد يذهب في البيد ، وأنشأ يقول :

(أبرق وأرعـد يا يزيـ ـدُ فما وعيدك لى بضائر)

ودفعها الى (الثالث) فقرأها وقال : سألوا ظلماً . وخوّفوا هضماً ، لقُوا حرباً ولقيت سلماً . وانشأ يقول :

(زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامةٍ يا مربع)

ودفعها الى (الرابع) فقرأها . وقال : قولُ الذليل وبوله سِيّان . وانشأ يقول :

(ما ضرّ تغلب وائل أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحران)

ودفعها الى (الخامس) فقرأها . وقال : نهيق الحمار . ودم الأعيار ، جُبار جبار . وانشأ يقول :

(ما أبالي أنبّ بالحزن تيس أم لحاني بظهر غيبٍ لئيم)

ودفعها الى (السادس) فقرأها وقال : إذا عَلِقتك الأمجاد . فليهن عليك الحسّاد . وانشأ يقول :

(إذا اهل الكرامة اكرموني فلا اخشى الهوان من اللئام)

ودفعها الى (السابع) فقرأها وقال : كيف يخاف الصُرَعَة . مَن هو في ذي المنعة . وانشأ يقول :

(كم تنبحون وما يُغني نباحكم مايملكُ الكلبُ غيرَ النبح من ضرر)

ودفعها الى (العاشر) [1] فقرأها وقال : نَوْكَى هَلْكَى ، لم يعرفوا خبرك . ولا دروا أمرك . وانشأ يقول :

(فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عنـد سيدنا لذلّوا)

(١) كذا في الأصل فلعل صوابه (الى الثامن) فيكون حذف من النفر العشرة اثنين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعندي صديق لي من السُّوقَة له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مُسِرّاً : إن هؤلاء الكتّاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحسّاد . وضربوا الأمثال في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعةٍ من عزٍّ ابي الحسن ـ أطال الله بقاءه ـ ومعقل لا يُسامى ولا يُنال ، وأنا أقول بالشَّفَقَة :

(تَوَقَّ قوماً من الحسّاد قد قصدوا خطَّ قدرك في سرٍّ وفي عانِ)

فقلت له : إني اقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

(إنّ ابن يحيي عبيدَ الله أمنني من الحوادث بعد الخوف من زمني)

(فلست أحذر حسّادي وان كثروا ما دمتُ ممسكَ حبلٍ من ابي الحسن)

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكتّاب ، باستهانتي بالحساد ، عند اعتلاقي حبائلك ـ أعزك الله ـ أنشأ متمثلاً بقول نصر بن سيّار :

(إني نشأتُ وحسّادي ذوو عددٍ يا ذا المعارج لا تَنْقُصْ لهم عَدَدا)

(إن يحسدوني على ما قد بنيتُ لهم فمثلُ حسنِ بلائي جرَّ لي الحسدا)

انتهت (مقامة) الجاحظ . وبعدها رجع الى مخاطبة الوزير وتعجبه من كثرة حسّاده عليه وسرد بعض الآثار والأخبار والأشعار التي قيلت في الحسد والحسّاد وشؤم حياتهم وسوء منقلبهم .

***

فرغنا من التعليق على (الرسالة الرابعة) في العداوة والحسد وعرض نموذجات من آراء الجاحظ وأفانينه فيها . ولنقبل الآن على شيء من ابحاثها اللفظية وما يتخللها من الفوائد اللغوية . من ذلك قوله :

ص ١٠١ وصف الجاحظ علماء الباطل الذين يلبسون لباس الزور وقال ان لهؤلاء أساليب بها (تستوي لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم ويستخولوا رعاعهم وقومهم) رعاعهم الثانية محرفة في الغالب عن (زعمائهم) اي ان أولئك العلماء المبطلين بمخاريقهم واحابيلهم يتخذون من زعماء القوم خولاً وخدماً وحاشية لهم .

ص ١٠٣ اسطر ٥ قوله (ففَلَق المأمون واحتدم) (فلق) و (قلق) بمعنى واحد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقال إياك والغَلَق والقَلَق والضجر والحدّة والغضب . فلا حاجة الى تصحيح إحداهما بالأخرى كما فعل المصحح .

وقوله (لم ير احداً يذب عن كتابي) صوابه (يذبّ) بالذال المعجمة أي يذود و يدافع .

ص ١٠٤ قوله : (بإزاء كل حاسد راهن) لعل صواب (راهن) (راحم) اي راحم يرحم الحاسد من فرط ما يعاني من لذع الحسد . فلا حاجة لما قاله المصحح .

وقوله (لن تعدم الحسناء ذامّا) بتشديد الميم اسم فاعل من الذم والمعنى ظاهر لكن الأشهر في المثل (ذاما) بتخفيف الميم والذام هو العيب . ويؤيده البيت الذي بعده:

(ولن تصادف مرعى ممرعاً أبداً الا وجدت به آثار مأكول)

وعقب الجاحظ هذا البيت بقوله (يقال يعاب في كل حَسَن ويؤكل منه فيعيبه ذلك) فقوله (يقال) أي في تفسير معنى البيت وقوله (يعاب) محرف عن (يعاث) والعيث الافساد وقوله (في كل حَسَن) اي ان كل شيء حسن لا بد ان تنال منه الناس بما يشوهه ويفسده . لكن قوله بعده (ويؤكل منه) يرجح ان تكون كلمة (حسن) محرفة عن (حش) بتثليث الحاء وهو البستان ومجتمع النخل وهو المناسب لقوله في البيت (مرعى ممرع) ثم استُعمل (الحش) مكنيّاً به عن المرحاض . قال صاحب القاموس في تعليل ذلك : (لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين) .

وقوله ص ١٠٨ (الا ان نار الحسد تلهبه : فيهذي هذيان المريض ويهمز همزان المعزى) في الأصل العنزى مكان المعزى فصححه المصحح بالمعزى ولو صححه بالعنز لكان أقرب (وهمز همزان) لا معنى له هنا ولا يقال في مصدر همز همزان وانما صوابه قفز قفزانا أو نقز نقزانا وكلاهما بمعنى وثب وثبانا . وفي الحديث عن عائشة أنها هي وام سلمة كانتا في وقعة (بدر أو أحد) تنقزان القِرَب اي تقفزان بها قفزاً لسقي الجرحى . والحسود اذا فوجئ بخبر من مباهج محسوده لا يملك نفسه عن ان يتحرك في مجلسه صُعُداً أو يمنةً ويسرةً لاضطراب نفسه . وارتعاش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اعصابه . لكن الجاحظ بالغ مذ جعل هذه الرعشة قفزة كقفزة العنز .

وقوله (فان كان السيد نحريراً نقاباً و نقريساً بليغاً) فسروا النقريس بالطبيب ومرادهم بالطبيب والطَبّ الحاذق في عمله ثم غلب على الحاذق في مداواة الأبدان وهذا كالنطامي والنطّيس قال الشاعر :

(وقد أكون مرة نِطّيسا طبّاً بأدواء الصبا نِقريسا)

وقوله ص ١١٠ (والحاسد الذي فيه تقيّة . ومعه مُسكة . وبه طَعْم أو حياء) طعم الشيء حالته في المذاق طيباً او قبيحاً . وفى الأساس (ما فلان بذي طعم ولا طعم له اذا لم يكن مقبولاً) اي اذا لم يكن سائغ العشرة والحديث في مذاق الناس ، ثم شاع استعمال الطعم بمعنى النباهة والفطانة في الحديث ومعاملة الناس فكما يقال فلان ماله ذوق او لا يذوق يقال فلان لا يستطعم اي لا يذوق وقلما تقول فلان ما عنده طعم او ما به طعم اي ذوق لكن الجاحظ في عبارته السابقة استعمل (الطعم) بمعنى الذوق كما هو ظاهر السياق . ومعنى (معه مُسْكة) اي رأي وعقل يُرجع اليه .

وقوله في وصف الحاسد الحاذق (ولا سيما ان كان جليساً لازماً . ومحدّثا لا يريم) اشتهر التحديث بمعنى رواية احاديث النبوة ، والمحدث هو الذي يحفظها ويتقن روايتها ، اما الذي يروي أحاديث الناس فلا يوصف بالمحدث وانما يقال انه اخباري وراوية للأخبار لكن الجاحظ استعمل (المحدث) بهذا المعنى اي معنى الاخباري الذي يروي احاديث الناس ، ويجيد القاءها ، ويحسن التصرف في إيرادها ، ومن الغريب ان يعود اليوم هذا الاستعمال فيشيع على ألسنة الناس وقد سمعت فاضلاً بالأمس يقول ان جلالة الملك عبد العزيز بن سعود محدث عظيم ، والأمير شكيب ارسلان أيضاً محدث كبير ، ولا يريد الا أنهما حسنا الحديث ، غزيرا المادة في رواية الأخبار وسرد الوقائع بحيث يملكان على السامع نفسه واصغاءه .

وقوله (ص ١١١ سطر ٨) (راجع وكان بدر منه عن وهم وخطأ) صوابه راجع ما كان بدر منه الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله (ص ١١٤ سطر ٥) (وأوكدوا قولَ القائل) نبه بعضهم في عثرات الأقلام على أنه لا يستعمل فعل (وكَّد وأكَّد وأوكد) الا في الأيمان والعهود والمواثيق كما ورد في القرآن « فلا يقال أؤكد لك الخبر ولا أؤكد لك قولي » . لكن الجاحظ في عبارته المذكورة استعمل هذا الفعل مع القول فقال (وأوكدوا قول القائل) اي ان حذاق الحساد في إسكاتهم صاحب الغيبة وعدم نهيهم له عنها انما كانوا مؤكدين ومثبتين قوله . فاستعمال الجاحظ هذا يصح ان يعتبر بمنزلة روايته له وان لم تذكره المعاجم .

وقوله ص ١١٦ (حرّان ليس على التراب براقد) صوابه (على الترات) جمع ترة وهي الثار

وقوله (ان المصيبات تنزع السجيات) السجية الطبيعة ويمكن ان نجد معنى لقوله ان المصائب اذا نزلت غيّرت الطبائع ، وبدلت الأخلاق ، غير ان السياق يدل على غير هذا المعنى : يدل على ان المصائب تستل الضغائن من الصدور . فالسّجيات اذن محرفة عن (السخيمات) جمع سخيمة وهي الضغينة وجمعها على (سخائم) اكثر وأشهر .

وقوله :

(اذا المرء ذو القربى وذو الجند أجحفت به سنةٌ سلّت مصيبته جعدي)

وما قلناه آنفاً نقوله هنا من أن السياق يدل على ان صواب (ذو الجند) (ذو الحقد) وصواب (جعدي) (حقدي) اي اذا نزلت مصيبة بقربي الحاقد عليّ زال الحقد من صدري عليه .

وقوله ص ١١٧ :

(وان اكتسى ثوباً نسيساً لم أقل يا ليت ان عليّ حسن ردائه)

صوابه (ثوباً قشيباً) .

وقوله بعده :

(واذا تخرق في غناه وقرته واذا تصعلك كنتُ من قرنائه)

التخرق كناية عن الاسراف في الجود كأن الكف تنخرق فلم تعد تمسك مالا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله (وقرته) بالقاف لا معنى له يناسب هنا . وصوابه (وفرته) بالفاء اي اذا استغنى ابن عمي واسرف في الجود على الناس أتجنبه وأوفر عليه ماله فلا أسأله ولا ارزؤه وعلى عكس ذلك اذا افتقر فاني الزمه وأواسيه . وكان عبد الله بن مروان يقول ـ اذا سمع هذه الأبيات ـ هذا والله من شعر الأشراف .

و ص ١١٨ ذكر أبيات النابغة الجعدي التي أنشدها بين يدي النبي (ﷺ) ومنها في صفة خيلهم في الحرب :

(وليس بمعروفٍ لنا ان نردها صحاحا ولا مستنكرا ان نعقّرا)

نعقر بالفاء من العفر وهو التراب اي لا نرد خيلنا صحيحة بل معفّرة وممرّغة في التراب . وهو حسن ولكن الأحسن منه والأصوب (ان نعقّرا) بالقاف اي لا نردها صحيحة الأعضاء بل نردها معقورة ـ من كثرة ما طُعنت بالرماح وضربت بالسيوف . و (العقر والتعقير) الجرح وأن تقطع قوائم الفرس بالسيف .

وقوله من أبيات الفِند الزمّاني :

(فلما صرخ الشرُّ وأمسى وهو عرثان)

صواب (صرخ) بالخاء المعجمة (صرّح) بالحاء المهملة اي ظهر وانكشف للعيان . و (عرثان) اي جوعان وهو خطأ صوابه وهو (عريان) بالعين المهملة وبالياء كناية عن ان الشر لا ستر عليه . وهو يؤيد رواية (صرح) كما ان رواية (صرح) تؤيده .

وقوله منها : (بضربٍ فيه توهينٌ وتضجيعٌ واذعان)

(وبعض الحلم عند الجهـــل للذلة إذعان)

(اذعان) الأولى صوابها (إرنان) وهو الصياح . و (ضجّع) في الامر اذا قصر فيه ولا يناسب هنا فصوابه (تفجيع) ويروى (تخضيع) .

وص ١١٩ قوله (بقافية تقرى العروق فتحسم) صوابه (تفرى) بالفاء اي تقطع .

و ص ١٢١ قوله (لنزع الروح بالكلاليب . أهون من بذل معروف بترهيب) هذه العبارة قالها احد العشرة الذين بنى الجاحظ (مقامته) على أقوالهم وقد ذكرناها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بنصها آنفاً وهي تصور لنا كيف كان سفهاء أدباء العصر العباسي يهددون نبلاء الكتاب بالحط من مؤلفاتهم وأشعارهم وآثارهم اذا هم لم يشركوهم في الجائزة والمعروف . وهذا التهديد يسمى في أدب الافرنج شانتاج chantage وقد مرت الاشارة اليه في الكلام على الرسالة الثالثة (في الجد والهزل) وقلنا ثَمَّ ان المرحوم الأب أنستاس وضع كلمة (تشنيح) وهو التشنيع نفسه غير ان الجاحظ في (مقامته) هذه استعمل كلمة (ترهيب) فهي اذن أولى بالاستعمال وأجدربان تحل محل كلمة (chantage) . بقي انه لا يقال في اللغة (رهّبه) وانما يقال (أرهبه) اذا خوفه و (ترهّبه) اذا هدده وتوعده . ومصدره الترهّب فما للجاحظ يقول (ترهيب) ؟ ولنا ان نقول ان ما قاله الجاحظ بمنزلة ما رواه وهو موثوق في اللغة مأمون على ألفاظها . أو يقال انه استعملها لضرورة سجعة (كلاليب) وقد نصوا على جوازه في الشعر فهل يجوز في السجع يا ترى ؟ وعلى هذا لا يجوز لنا استعمال مصدر (الترهيب) الا لضرورة او مزاوجة فيقال مثلاً (بالغ الأمير في ترغيب القوم وترهيبهم) ولا يصح ان يقال (بالغ في ترهيبهم) وحدها وانما يقال (بالغ في التوعد والترهّب) ويشهد لجواز استعمال الترهيب في مقام المزاوجة ما درج عليه السلف من تسمية كتبهم (بالترغيب والترهيب) فابن زنجويه (المتوفى سنة ٢٤٨ هـ) له كتاب بهذا الاسم ومثله ابو القاسم الاصبهاني (المتوفى سنة ٥٣٥ هـ) ومثلهما ابن عبد القوي (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) .

وفي ص ١٢٢ : يخاطب الجاحظ الوزير بقوله (وليس العجب ان يكثر حسادي وانا أنعق بمحاسنك واهتف بشكرك) النعيق صياح الراعي بغنمه وصياح الغراب ولا يكاد يستعمل في غيرهما الا بقصد السخرية ، نعم جاء في الأساس (نعق المؤذن . وسمعت نعقة المؤذن ونَعَقاته) فهو اذن استعمال سائغ . والأوفق في نفوسنا اليوم ان يقال : (وانا أشيد بمحاسنك او أشدو بمحاسنك او أنوه بمحاسنك) .

انتهى ما اليه قصدت من الكلام على رسائل الجاحظ الأربع والبحث في بعض ماتدعو الحاجة اليه من مطالب اللغة والانشاء وصياغة الكلام ونسأله تعالى حسن الختام .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(استدراك) قلنا آنفاً ان الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) قد يكون اول من ابتكر فن المقامات . وأذكر انني كنت منذ بضع عشرة سنة وأنا أطالع أمالي ابي علي القالي — رأيت في (أحاديث) يرويها صاحب الأمالي عن ابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) ما يشبه ان تكون (أي تلك الأحاديث) مرتجلة لا مسبوقة وموضوعها خيالي لا واقعي وان ابن دريد وضعها من عند نفسه ليكون لشُداة الأدب فيها متعة من لغةٍ أو خبر أو عظة أو فكاهة . خطر لي هذا ودونته في مفكرتي لأبني عليه مقالاً او محاضرة وبعد مدة من الزمن ذاكرت بذلك زميلي الأستاذ خليل بك مردم بك فاذا هو يقول : إن له بحثاً في ان البديع الهمذاني هل استقى طريقة مقاماته من أحاديث ابن دريد في الأمالي أو من غيره ؟ وان بحثه هذا نشره في مجلته (الثقافة) سنتها الأولى . فاغتبطت لهذا التوارد . ثم قرأت في مجلة (الرسالة) مناظرة طويلة الذيل بين الأستاذين : ذكي مبارك والسباعي بيومي حول موضوع أحاديث ابن دريد وهل كانت نواة لمقامات البديع أو لا ؟ وقد أثير غبار مثل هذه المناظرة في مجلة الأصداء الدمشقية بين الأستاذين جميل سلطان ومحمد خلف الله الأديب المصري وكان إذ ذاك نزيلاً في دمشق .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net